أهداف الدعوة الاسماعيلية في مصر وبلاد المشرق الاسلامي منذ عصر مبكر

بقلم الدكتور موسى لقبال
رئيس قسم التاريخ - كلية الآداب
جامعة الجزائر

لم يكن للدعوة الاسماعيلية التي انتشرت من دار الهجرة في سلمية ، الى الآفاق البعيدة في المشرق ، وفي المغرب هدف مباشر ، ونهائي في دار الاسلام ، غير اسقاط نظام الخلافة العباسية ، واحلال الخلافة العلوية محلها ، احياء لمجد العلويين في المشرق ، وانصافا لهم من العباسيين « المغتصبين »[1] وتحقيقا لمبدأ وحدة الخلافة الاسلامية .

ولما كان هذا الهدف لا يتحقق الا في ظل نظام سياسي علوي قار ، يكون في منطقة ما من بلاد المشرق أو في اقليم وثيق الصلة بها ، مثل مصر ، فقد اتجهت العناية . في المرحلة الاولى من التوسع ، على حساب العباسيين ، لتحقيق الهدف ، نحو تأسيس أنظمة سياسية في الاطراف ، حيث تكون هذه بعيدة عن مركز الثقل العباسي ، وحيث يتوفر الامن ، ويوجد استعداد من السكان الذين كانوا يميلون الى تأييد دعوى العلويين بدافع حبهم لآل البيت . وكانت هذه الخطة متقنة وحكيمة ، لان الفاطميين ، استغلوا الأوضاع المختلفة ، في المناطق البعيدة ، في التمكين لأنفسهم ، ولحركتهم ، وفي الاعداد ، وفي التهيئة المعنوية ، والمادية . قصد التسرب الى المناطق الأخرى المجاورة ، تدريجيا . كل ذلك في اطار الاحتراز من الاحتمالات السيئة والمفاجآت غير السارة .

---

(١) المقريزي : اتعاظ الحنفا ٢ ، ص ٥٣ — س ٣ ط ١٩٧١ .

ومن ثم لم يكن رجال الدعوة الاسماعيلية منذ البدء ، راغبين في استقرار الدولة الفاطمية باليمن ، لفقرها ، وتطرفها ، حتى لو نجحت هجرة المهدي اليها واعلن منها الدولة العلوية ، كما لم يفكر أي خليفة من الخلفاء الفاطميين في الاستقرار نهائيا في بلاد المغرب ، رغم أهمية موقعه ، وغناه ، وسعة مجالاته ، وتفتح أراضيه ، على عالم البحر المتوسط ، وافريقيا ، والارض الكبيرة ، وانما كان الفاطميون يعدون ليوم العودة الى بيئتهم الشرقية التي غادروها ، مضطرين ، وفي المشرق ، أنصارهم ومؤيدوهم ودعاتهم المنتشرون في الجزائر المختلفة ومنها مصر ، وباقي أراضي الخلافة العباسية .

ومن ثم لم يكن للفاطميين خطة أخرى ، ثم حملهم عداء المالكية ، وثورات زناتة ، وفشلهم في حكم بلاد المغرب ، وبعدهم عن المشرق ، على تغييرها ، لان الوجهة المشرقية للحركة الاسماعيلية ، ظهرت منذ عصر مبكر ، على لسان المهدي قبل دخوله أرض مصر أثناء فراره الى بلاد المغرب فقد خاطب احد ولاة مدينة الرملة المتشيعين ، الذي خشى عليه من رقباء العباسين في الطريق ، بقوله « طب نفسا ، وقر عينا ، فوالذي نفسي بيده ، لاوصلوا الي أبدا ، ولنملكن أنا وولدي نواصي ولد العباس ، ولتدوسن خيولي بطونهم[٢] » ومثل هذا القول ، لا يدل إلا على وجود خطة ثابتة ضد العباسيين في المشرق ، كان من المفروض لها فيما يبدو ، أن تنفذ من سلمية ، لولا انكشاف أمر الحركة للعباسيين ، وكانت « هجرة » المهدي الى المغرب ، مفاجأة مذهلة لأخلص رجاله ، وأكبر دعاته ، لأنهم كانوا على علم بالخطة الأصلية وبأهداف الحركة الاسماعيلية ، ولم يكن في نيتها فيما يبدو ، اعلان الامامة العلوية ، في أقصى دار الاسلام ، أي في بلاد المغرب .

وتصرفات المهدي ، بعد اعلان الخلافة الفاطمية في رقادة ، وارساله

---

(٢) اليماني : سيرة جعفر ١١٢ .

الحملات ضد برقة ، ومصر أكثر من مرة ، ومجازفته بحياة ابنه ابي القاسم في ميادين بعيدة عنه ، كانت التزاما بالخطة الاصلية(٣) .

وكان رد المهدي على ابنه ، الذي تردد ، وخاطب أباه « يا أمير المؤمنين قد خولك الله ، وملكك من الدنيا مافيه سعة وكفاية ، فعلام تغم نفسك ، وتشغل صدرك . دع هذا حتى يأتي اليه به عفواً » ردا جازما ، وعمليا فقد قبض يده اليسرى ، وقال : نعم هذا المغرب في قبضتي هذه وبسط اليمين وقال ، ولكن كفي هذه من المشرق صفر ، ان ثقل عليك ما أمرتك به ، خرجت له بنفسي(٤) .

ومثل هذا الرد لا يدل الا على الاصرار على مضايقة العباسيين ، وعلى الرغبة في تعبيد طريق المشرق لمن يأتي بعده ، رغم أنه كان يعلم ، أنه ينطلق من قواعد غير مستقرة ، الى مناطق يسودها الأمن والاستقرار ، في ظل ولاة مصر العباسيين ، وأن الخلافة العباسية في هذه الفترة على جانب كبير من القوة ، تمكنها من الاحتفاظ بأراضيها ، ورد الأخطار عنها .(٥) ولم يشأ ابنه أن يشذ عن الاتجاه العام ، فاستجاب لرغبة ابيه ، رغم اقتناعه بعدم جدوى العمل في هذا الوقت وناضل ضد ولاة العباسيين في مصر ، بالقلم ، وبالسيف ، ولقي الهزائم المنكرة ، وقوبل بالسخرية(٦) ، وعير من طرف السكان(٧) ، وكان المهدى ، يقابل كل ذلك

---

(٣) وقد عبر بعض الباحثين عن بعض أهداف الفاطميين بقوله : فتح مصر كان هدفا رئيسيا Objetif Principal انظر Huaht : CI Histoire des Arabes T 1 P 340

(٤) النعمان : المجالس والمسايرات ١ ، ورقة ١٩ ـ ٢٠ وقدكان رد أبي القاسم على أبيه « بل أنفذ لما امرت به يا امير المؤمنين واسارع اليه» .

(٥) نفسه وقد عبر المعز لدين عن نشاط المهدي ضد مصر بقوله « علم المهدي انه لا يصل الى ذلك لكنه أحب الا يضيع الحزم » .

(٦) المقريزي اتعاظ الحنفا ١ ، ٦٩ ، ومن فرط تأثره لهجو الصولي وتجريحه له قال « والله لا ازال حتى املك صدر الطائر ورأسه أن قدرت والا أهلك دونه» ، ومن هذا القول تتضح الأهداف البعيدة للدعوة الاسماعيلية .

بعدم الاكتراث ، لأنه مقيد بخطة قديمة بانت ملامحها في بلاد المغـرب في أول صلاة جمعة دعي له فيها بأمرة المؤمنين « اللهم فانصره على اعدائك المارقين ، وافتح له مشارق الارض ، ومغاربها كما وعدته ، وايده علـى العصاة الضالين[٨] • واهتمـام المهدي وخلفائه باقليم برقة يدخل فـي اطار السياسة الشرقية المخلافة الفاطمية • ومن برقـة ، انطلقت البعوث الاستطلاعية ،ضد حدود مصر ، والحملات العسكرية البرية والبحريةلضم اراضيها في الجنوب ، وفي الشمال ، واليها التجـأت العناصر المواليـة للفاطميين ، أو الثائرة ضد ولاة العباسيين ، في مصر •

وأهمية قاعدة برقة ، باب مصر ، في الاستراتيجية الفاطميـة للنضال ضد العباسيين في المشرق تماثلها أهمية قاعدتـي فاس وطنجـة ، باب الأندلس ، للنيل من الأمويين ، ثم صقلية ، وقلورية باب أوربا ، للنشاط الثغري ضد البيزنطيين • وبينما فشلت قواعد فاس ، وطنجة ، وصقلية ، وقلورية ، على المدى البعيد ، في أداء مهمتها نجحت قاعدة برقة في أداء دورها كاملا غير منقوص •

ولم يرث القائم بأمر الله عن ابيه ، لقب الخلافة فقط ، بـل أصبح ملتزما بنفس سياسته واتجاهاته الشرقية ، وباقلاق راحة العباسيين مـن مركزهم في مصر ، غير انه ـــ بعد أن خبر ميدان الحرب في الجبهةالمصرية، كان يميل ايضا لاستخدام اساليب السياسية والدعوة الهادئة لكسب ولاء مصر[٩] ، وجلب ولاتها الاخشيديين للاعتـراف بالسيادة الفاطميـة ، والتعاون مع الفاطميين جيرانهم في المغرب ، ولذلك أرسل الى محمد بن

---

(٧) ابن عذارى البيان ١ ، ٢٦٠ س ١٨ .

(٨) ابن ابي الضياف : اتحاف أهل الزمان ١ ، ١٢٢ .

(٩) وقـد شغله عن مصر ، اضطراب وضع بلاد المغـرب ، ودسائس الأمويين : انظر ماجد ظهور خلافة الفاطميين ٩٨ ـــ ١٠٠ .

طغج الاخشيد الذي انزل هزيمة منكسرة من قبل برجاله ، يطلب منه الاعتراف بالولاء للفاطميين بوصفه تابعا وحليفا ، او جارا صديقا ، ايثار لجانب السلم ، بين الجيران ، واشاعة لروح المودة والألفة ، والتعاون بينهم ضد الاخطار . ولم ينس أن يهون عليه مسألة الانفصال عن العباسيين باعتبار ان الولاء لهم أصبح عادة تقليدية قديمة،فضلا عن كونهم لايقدرون قيمة المخلصين من رجالهم ولقد تضمنت الرقعة التي كتبها القائم بأمر الله بخطه ولم يطلع عليها أحدا قوله يخاطب الأخشيد « وأنا أعلم ان طول العادة في طاعتهم قد كره اليك العدول عنهم فان لم تجد من نفسك معونة على اتباع الحق ولزوم الصدق فانني أرضى منك بالمودة والأمر والطاعة حتى تقيمني مقام رئيس من أهلك تسكن اليه في أمرك وتعول بمثل ذلك ، واذا تدبرت هذا الأمر علمت أن الذي يحملني على التطأطؤ لك وقبول الميسور منك ، انما هو الرغبة فيك ، وانت حقيق بحسن مجازاتي على ما بذلته[10] .

ورغم ان الاخشيد ، تأثر بمضمون الرسالة ، الا أنه كان بعيد النظر، عندما لم يسارع بالاجابة عنها ، واعتذر بأنه أمي ، ومن الصعب عليه نظرا لعلاقاته الخاصة بالعباسيين ، أن يبوح بسر خطير ، لأي كاتب من كتابه[11] ،قد يستغله ضده ، وترك نفسه حر التصرف،يتأمل ابعادالمشروع الجديد ، ومكاسبه ، ويبدو أنه مال في فترة مامن صفاء ذهنه ، الى البقاء على موقف التحفظ ، لان ارتباطه بالعباسيين يتيح له قدرا كبيرا من الاستقلال بالتدبير ، أما عندما طلع نجم محمد بن رائق الخزري وقلده

---

(١٠) ابن سعيد : المغرب في حلي المغرب ١ ، ١٧٥ وما بعدها وعن قصائد القائم ومكاتباته لاهل مصر ليخذلهم عن التبعية للعباسيين ، انظر عريب بن سعد : صلة تاريخ الطبري ٤١ ، ٤٣ ومن ضمنها مارد به الصولي على القائم بأمر الله .

(١١) نفسه ١ ، ١٧٦ ، عاشور : مصر في العصور الوسطى ١٨٩ .

الراضي الخليفة العباسي ولاية الشام التي تعتبر امتداد النفوذالاخشيديين ومجالا حيويا لتوسعهم فانه هم بقطع الصلة مع الخلافة العباسية ، واعلان الخطبة للخليفة القائم بأمر الله الفاطمي(١٢) ، لو أن رجاله نصحوه بالعدول عن تنفيذ هذا الاتجاه الخطير ، الذي سيزيد ، بدون شك من غضب العباسيين ، ويعلي شأن خصمه ابن رائق ، الذي قد ينقلب الى بطل انقاذ قد يرمي به في ميدان مصر الثائرة ضد السلطة الشرعية في بغداد(١٣) واذا كان الاخشيد قد استجاب لرأي المخلصين من نصحائه فأبقى على الرباط الشكلي مع العباسيين ،واحتفظ باستقلاله عن الفاطميين فانه استجاب الى حد ما ، للعرض الثاني الذي تضمنته رسالة الخليفة الفاطمي ، حيث اقترح في رده على القائم ، أن يقبل الأخير زواج ابنه ، وحجته ولي عهد المسلمين أبي طاهر اسماعيل بابنته ، فاستجاب القائم بأمر الله وحبذ الفكرة على أساس انها تتيح فرصة لربط المغرب ، بمصر ، عن طريق المصاهرة ، التي تتضمن الحلف والتبعية في نظره ولذلك نلاحظ أنه عندما انطلق بالفكرة ، الى أبعادها السياسية وأرسل الى الاخشيد يقول له « وصل كتابك وقد قبلنا مابذلت ، وهي وديعة لنا عندك ، وقد نحلناها من بيت مالنا قبلك مائة الف دينار فوصل ذلك اليها »(١٤) . لم يرتح لمضمون الرد ، الذي انبى على أساس تبعيته للفاطميين ، وكان ينتظر من الخليفة القائم ، ان يقبل مشروع الزواج ، تشريفا له ، وطريقا

---

(١٢) نفسه س ٤ وقد عبر عن موقفه بقوله « قد تأذيت بالراضي ، وبهذا الصبي ابن رائق ، وقد أمرت الخطيب أن يدعو لابي القاسم صاحب المغرب » .

(١٣) نفسه ١ ، ١٧٧ ، س ١٦ ــ ١٧ وقد قالوا للاخشيد « لانك اذا عملت هذا كاتبه من مصر ، من يكره هذا ، وكتب بذلك الى العراق فان كان الراضي لم يقلده قلده ، وانفذ اليه الاموال والعساكر ، وصيرت له شيعة وخاصة ولكن دع هذا الى وقت آخر » .

(١٤) ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ١ ، ١٧٧ .

للمصافاة بين البلدين ، وان يهادية باموال ، وألطاف كثيرة ، نظير هـذا العرض السخي ليفاخر بها ويزايد امام بعض خصومه ، وليشعر الخليفـة العباسي بأهمية مركزه ، وعظمته ، وقوته ، فلا يبالـغ في اضفاء كـل الأهمية على خصمه محمد بن رائق .

وما دام الامر لم يتم مع القائم بأمر الله ، كما توقعه الاخشـيد ، مكسبا ماديا وأدبيا ، فانه بقي على تحفظه ، ووضعه القديم واليامستكفيا من طرف العباسيين[١٥] .

وكان يمكن للخليفة المنصور أن يواصل العمـل ، في نفس الخط الذي رسمه أبوه ، وجده ، نضالا بالقلـم ، وبالسيف ، في سبيل نشر الدعوة ، وتنفيذ مشاريع الدولة ، واعلاء كلمتهـا في المشرق العباسي ، لولا التياث أمر بلاد المغرب[١٦] بسبب ثورة أبي يزيد وابنه فضل وانتفاض محمد بن خزر ، واضطراب أوضاع صقلية ، وعندما تغلب على معظـم هذه المشاكل[١٧] ، لم يمتد به أجله ، ومع ذلـك فان أهتمامه بارجـاع الحجر الاسود الى مكانه ، أكسب خلفـاء الفاطميين سمعة في الشرق ، فتعاطف معهم جمهور غفير من سكانـه ، وكان خير وسيلـة للأبانة عن أهميتهم «للابقاء على سلامة المقدسات الاسلامية» بعيدا عن أيدي المغامرين حتى ولو كانوا من بين الاسماعيلية ، وقد أوصى ابنه وحجتـه المعز لدين الله ، بالاهتمام بأمر مصر ، والشرق ، تنفيذ الوصية جده القائـم[١٨]

---

(١٥) وبموت الخليفة الراضي ٣٢٩ هـ : وموت محمد بن رائق ، صفا الجو السياسي للاخشيد ، وخلصت له ولاية مصر وبلاد الشام انظر ابـن سعيد المصدر السابق ١ ، ١٧٩ .

(١٦) ماجد ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها : ٩٨ ــ ١٠٠ .

(١٧) المقريزي : اتعاظ الحنفا ١ ، ٩١ ويشير الى أن المنصور الفاطمي ، يشبه في الحزم وتصفية المشاكل ، سميه ابا جعفر المنصور العباسي.

(١٨) نفسه ١ ، ٦٩ .

وباشراف المعزلدين الله ، ثم تنفيذ الخطة الاصلية للحركة الاسماعيليةضد العباسيين في المشرق .

وقد كان هذا الخليفة أوفر خلفاء الفاطميين نشاطا في العمل ضد العباسيين ، فلم يقتصر على ميدان الدعوة ، وارسال الدعاة لتخذيل رعاياهم ، واستفساد ولاتهم ، وتمهيد نفوسهم لقبول التشيع أو الولاء للخلافة الفاطمية ، بل أرسل الجيوش لنجدة سكان جزيرة اقريطس التابعين لهم ، كي يظهرهم على حقيقتهم عاجزين عن حماية الاسلام ، او عن فرض هيبتهم على بعض ولاتهم في مصر الذين تباطأوا في نجدة سكان الجزيرة وعندما استقبل رسول ملك الروم ، في المنصورية ، أوعز اليه بسر خطير « لتدخلن علي وأنا بمصر مالكا لها »[١٩] .

وتركزت خطته لتحقيق هذه الغاية ،على التمهيد الكامل لذلك ، في بيئة المغرب ، بحشد القوى وتربية جيل جديد من كتامة وصنهاجة يكون جديرا بأن يمثل رجاله الدور الايجابي في المشرق ، نظير ما فعله أسلافهم في بيئة المغرب . أما التمهيد لذلك في بيئة المشرق ، فيكون بمتابعة نشاط الدعاة ، وتسقط أخبارهم ، والاعتماد على الماهرين منهم في اكتساب ثقة ولاة مصر الاخشيديين ومن هؤلاء ابو جعفر ابن نصر الذي أثر على أحمد بن علي بن طغج ، وحوله الى المذهب الشيعي ، وحمله على مكاتبة المعزلدين الله بعد أن صوره امامه بمثابة والدرحيم ، سوف يخفف عنه مشقات الحكم وعبث الجند[٢٠] ، وبواسطة هذا الداعي وغيره

---

(١٩) نفسه ١ ، ٢٢٦ ، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٨ ، ٢٣٩ — ٢٤٠ وعندما عاد اليه هذا الرسول بعد انتقاله الى القاهرة : قال له : لتدخلن علي بغداد وانا خليفة .

(٢٠) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ١١ ورقة ٢٤ ، خ دار الكتب رقم ٥٥١ ، ابو المحاسن النجوم الزاهرة ٤ ، ٧٣ . كامل حسين : في أدب عصر الفاطمية ١٦ ، المقريزي اتعاظ الحنفا ١ ، ١٣٩ وقد أصبح ابو جعفر ، من بين المقربين الى المعز لدين الله ، ومن مرافقيه .

كان يعرف المعزلدين الله ، سير الأوضاع في مصر وعن بعض مكاتباتهم ، وردوده عنهم تحدث الى شيوخ كتامة بقوله « واني مشغول بكتب ترد علي من المشرق ، والمغرب أجيب عليها بخطي[٢١] .

وفي أكثر من مرة ، كان يشرح أمام شيوخ كتامة ما يعلقه عليهم من آمال في ميدان مصر والمشرق بعد أن تحقق الشيء الكثير على أيـدي أسلافهم في المغرب . « واعلموا أنكم اذا لزمتم ما أمرتكم به رجوت أن يقرب الله علينا أمر المشرق كما قرب أمر المغرب بكم[٢٢] .

وشعوره بأن التعبئة المادية ، والمعنوية لم تكتمل بعد ، لم يستجب لرغبة دعاته في المشرق ، بأن ينتقل بسرعة الى مصر لتطـور الأوضـاع في صالح الحركة الاسماعيلية « اننا لم نتخلف عن ذلك الا انتظارا للمدة التي وعدنا الله الظهور فيها ، ولو حضرت ما تخلفنا » . وكي يوضـح أمامهم أن التأخر لحكمة ، وأن الانتقال الى مصر هدف أساسي الحركـة الاسماعيلية ، ذكرهم بالسابقة التاريخية التي ارتبطت بالمهدي جد الخلفاء الفاطميين تعبيرا عن وجوده السياسي ، وبأنه وإن لم ينجح ـ هو صاحب حق شرعي في هذه البلاد ، وذلك ما أصبح تقليدا متبعا بالنسبة لخلفائه، وأمانة موروثه عنه[٢٣] .

وعندما شعر المعزلدين الله بأنه أصبح في مركز قوة ، بعد اكتمـال الاستعدادات المادية ، والمعنوية ، افتعل حادثة الجارية التي قيـل أن أم

---

(٢١) القريزي : المصدر السابق ١ ، ٩٥ .

(٢٢) نفسه ١ ، ٩٦ .

(٢٣) المجالس السايرات ٢ ورقة ٤٧٤ وما بعدها ، اما النعمان فقد عبر عن الوضع قبيل فتح مصر بقوله « ما يمنع أمير المؤمنين من المشرق ... الا انه لم ير العزم في أمره فاما لو عزم على ذلك ما حال دونه حائل » .

الأمراء ، (زوجة المعز) وجهتها من المغرب ، لتباع في مصر ، فاشترتها أمرأة مثلها هي بنت الاخشيد ، لتتمتع بها ، وقد كانت هذه الحادثة ، محور الحديث دعائي قوي شنع فيه على ولاة مصر ، ونظام العباسيين ، وعلى المجتمع المصري ، امام جمع من شيوخ كتامة وقادتها ، وقد ختمه بقوله « يا اخواننا انهضوا اليهم ، فلن يحول بينكم وبينهم شيء ، واذا كان قد بلغ بهم الترف الى أن صارت امرأة من بنات ملوكهم تخرج وتشتري لنفسها جارية تتمتع بها فقد ضعفت نفوس رجالهم ، وذهبت الغيرة منهم »(٢٤) .

وهذا الاسلوب الدعائي الملتهب ، كان جزءا من خطة كاملة ، غايتها التمهيد لغزو مصر ولانتقال الخلافة الفاطمية اليها ، اما الوسيلة ، فكانت التشهير بالمجتمع والاساءة الى عناصر السلطة الداخلية ، والخارجية، حتى كان المعزلدين الله في مجالسه يصف العباسيين بالملاعين ، ويحرص على أن يتحف رجاله بما يحط من قيمتهم كخلفاء ، ومن ذلك مالاحظه من أن كتب التاريخ ، والاخبار ، التي سجلت عن العباسيين ، واطلع عليها ، تذكر ميل بعض الخلفاء الى اللهو ، والشرب ، والتمتع بالغلمان ، وعقب على ذلك بقوله « هذه محاسن القوم فكيف بمساوئهم وهذا قول من قصد بقوله مدحهم ، فكيف بمن قصد ذمهم (٢٥) .

ولم يتورع عن الطعن في مشروعية خلافتهم ، او عن الاشارة الى أن هدف الخطة الاسماعيلية منذ عصر المهدي ، كان القضاء عليهم « لو أراد

---

(٢٤) المقريزي : المصدر السابق ١ ، ١٠٠ .

(٢٥) النعمان : المجالس١ ورقة ١٧٠– ١٧١ ، وقد لاحظ المعز بدهشه كيف أن الكتب التي أهداها اليه بعض العلماء المعاصرين لم تتضمن غير سير بني أمية ، وبني العباس ، واخبارهم ، ولم يوجد فيها ما ينسب الى أي خليفة فاطمي ، مع أن الرجل الذي الف هذه الكتب ، صحب المهدي والقائم ، وكبر في عصر المنصور ، انظر : ورقة ٨٤ – ٨٥ منه .

الله ببني العباس خيرا لقطع امرهم يومئذ على يديه وهم في عنفوان أمرهم، وتمـام سلطانهم وعزهم »(٢٦) .

وتدل بعض التوقيعات التي اصدرها المعزلدين الله الى النعمـان بن محمد ، يمنيه بالخير الكثير ، والبناء الرفيع في مصر ، ردا على طلبه الحصول على أرض للبناء ليجتمع شمل أسرته بالمنصورية ، على أنه كان يعتبر نفسه مؤقتا في بلاد المغرب ، وأن ساعة الانتقال الـى مصر قريبة ، « فالله ، يهبك السلامة حتى تبتني في أيامنا ، ومعنا ، حيث يختاره الله ويرضاه له من ارض المشرق الأبنية الواسعة المنيفة »(٢٧) .

ومن هذا القبيل قوله أمام جمع من رجاله وجدهم عند جوهر متأثرين لمرضه الشديد ، « لا تغتموا ، فانه يبرأ ، ويفتح مصر بمشيئة اليه(٢٨) . ويرتبط بالخطة الاصلية للحركة الاسماعيليـة ، في عصر المعزلدين الله ، التدخل في شؤون الحجاز ، تمهيدا لفرض الحماية على الحرمين الشريفين، واكتساب مودة الأشراف ، اذ تشير بعض النصوص ، الى توسط المعزلدين الله ، لتحقيق الصلح بين فرعي بني الحسن ، وبني جعفر بن أبي طالب ، الذين اقتتلوا فيما بينهم ، وقد انفذ اموالا ورجالا تحمل ديات القتلى ، وكان أكثرهم من بني الحسن ، « فصار ذلك جميـلا عنـد بني الحسن للمعز » قابلوه بالدعاء له في مكـة عقب فتح مصر ، وتولى ذلك منهـم حسن بن جعفر الحسني ، الذي أرسل اليه المعزلدين الله « بتقليد الحرم وأعماله »(٢٩) .

وكانت مكاتبات الدعاة ، وبعض عناصر المجتمع في مصر ، لا تنقطع

---

(٢٦) نفسه ٢ ، ٤٧٨ وما بعدها .

(٢٧) نفسه ٢ ، ٦٣٤ ــ ٦٣٥ .

(٢٨) لمعة في سيره المعز ورقة ٣ مخطوط مكتبة جامعة القاهرة . رقم ٢٤٠٢٢ .

(٢٩) المقريزي : المصدر السابق ١ ، ١٠١ .

عن المعزلدين الله ، ومن هؤلاء الوزير ، ابو الفضل جعفر بن الفرات ، المعروف بابن حنزابة ، الذي حثه على فتح مصر نكاية في الأميرالاخشيدي الحسن بن عبد الله بن طغج أمير الرملة والشام الذي ضيق عليه ، وآذاه، وقصد به شرا[٣٠] ، وتضمنت بعض المكاتبات تعبيرا عن سهولة فتح مصر وطواعية سكانها للفاطمين ، بعد اختفاء كافور الاخشيدي فولا نصه « اذا زال الحجر الاسود ، ملك مولانا المعزلدين الله مصر[٣١] وكان هذا الخادم المتغلب الذي عرف بالاستاذ وكني بأبي المسك وقلد مصر نهائيا من طرف الخليفة العباسي ، بعد وفاة ابني الاخشيد ،من الدهاء والحكمة، بحيث أدرك قوة تأثير الحركة الاسماعيلية في مصر[٣٢] ، وأحس بثقل الفاطميين المجاورين له في برقة ، فلم يظهر العداء ، لكنه لم يتعاون مع المعزلدين الله لنجدة مسلمي كريت ، خوفا من غضب العباسيين ، واحتفظ بتوازنة أمام القوتين المتصارعتين ، فكان « يهادي المعز صاحب المغرب ، ويظهر ميله اليه ، وكذا بذ عن بالطاعة لبني العباس ، ويداري، ويخدع هؤلاء ، وهؤلاء[٣٣] . وما كان من أمر بقي خافيا في مصر

(٣٠) ابن أيبك الدواداري : الدرة المضية ٦ ، ١٢٠ ــ ١٢١ ، العيني ، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ج ١٩ ، القسم (٢) ورقات ٢٢١ ــ ٢٢٢ ، و ٥٠٧ ــ ٥٠٨ من القسم ٣ ،

(٣١) العيني : المصدر السابق ج ١٩ (ق٢) ورقة ٢٦٦ ــ ٢٦٧ ، سبط ابن الجوزي : المصدر السابق ج ١١ ، ٢٣ وفيه « الدنيا كلها » المقريزي: المصدر السابق ١ ، ١٠٢ نقلا عن ابن زولاق وفيه (الارض كلها) .

(٣٢) وكان من جلسائه انشط دعاة الفاطميين وهو أبو جعفر بن نصر الذي أثر عنه قوله « كافور الاسود غدا يؤخذ بأذنه انما بنيت هذه الدار لصاحب المغرب تؤخذ منها التبعة على كل تابع ومتبوع ، وذيل مرفوع تغير فيها الاحوال وتحمل اليها الاموال » ــ انظر كامل حسين : ادب مصر الفاطمية ١٦ .

(٣٣) ابو المحاسن : المصدر السابق ٤ ، ٦ .

ويريد المعزلدين الله أن يعرفه ، قبل ارسال حملة جوهر الضاربة ، فقد استفاده أخيرا من يعقوب بن كلس ، الذي فر من مصر ، ناجيا بنفسه ، من فتك الوزير ابن الفرات ، الى بلاط المعز لدين الله في المنصورية [٣٤] ، ولم يرجع الى مصر الا في ركابه ، وقد ظهر التعبير العملي عن اهداف الخطة الاسماعيلية في المشرق ، في الاعمال العسكرية التي وجهت ضد مصر ، منذ عصر المهدي واستمرت حتى أواخر عصر المعز لدين الله وكانت مصر في نظر الحركة هي الطريق الطبيعي للنفاذ الى قلب الخلافةالعباسية في بغداد ، بعد التهام اطرافها في الحجاز والشام ٠

ولم تكن حملة جوهر الناجحة ، في عصر المعزلدين الله ، غير الحلقة الأخيرة ، في سلسلة طويلة من الجهود المختلفة التي انتهت بفتح مصر وبلاد الشام وضمانة ولاء الحجاز واليمن ٠ أما العراق قلب الخلافة العباسية والعالم الاسلامي فقد أصبحت أطرافه هدفا للدعاة الاسماعيلية وللحملات العسكرية وللحركات التخريبية ٠

ولقد كانت الخاتمة الحميدة لجهود الفاطميين ضد العباسيين ، من اجل الظفر بخلافة علوية شاملة للعراق ولسائر المشرق الاسلامي ٠ في منتصف القرن الخامس للهجرة (١١ م) وبالتحديد يوم الاحد ٨ ذي القعدة ٤٥٠ هـ ٠ وذلك عندما نجح مؤقتا الأمير ابو الحارث ارسلان البساسيري في الدعاء ، وفي الخطبة للخليفة الفاطمي المنتصر بالله من على منبر جامع المنصور في بغداد ، وقطعها عن الخليفة العباسي القائم ، الذي أصبح مضيقا عليه في الأسر ٠

وتعتبر هذه الحادثة قمة لنجاح الدعوة الاسماعيلية ضد العباسيين ، لكنها من ناحية أخرى ونظرا لكونها وقعت في عصر هرم الخلافة

---

(٣٤) ابن الجوزي : المصدر السابق ج ١١ ورقة ١٥٢ ــ ١٥٣ ، العيني المصدر السابق ١٩ (ق٣) ورقة : ٥٠٧ ــ ٥٠٨ ٠

الفاطمية ، كانت على حد تعبير بعض المؤرخين « آخر سعادة الدولة الفاطمية »[٣٥] .



(٣٥) عن تفاصيل هذه الحادثة واصدائها انظر : المقريزي : اتعاظ الحنفا ٢ ، ٢٥٢ وما بعدها ط ١٩٧١ م .